في النقد

علامات

ملتقى قراءة النص (6)

حمزة شحاتة

قراءة نقدية ثقافية

المجلد 15
الجزء 60
جمادي الأولى 1427 هـ
May 2006

محتويــــــات

* حمزة شحاتة.. حياته من شعره ....
* صوت.. من خارج الزمن ....
* البعد الثالث في حمار حمزة شحاتة ....
* نص «حمار» لحمزة شحاتة ....
* شعرية القيَم ....
* ومات واقفاً!! ....
* قراءة في كتاب حمزة شحاتة «الرجولة عماد ا لخلق الفاضل» ...
* إيقاع النثر في شعر حمزة شحاتة ....
* اللغة في شعر حمزة شحاتة ....
* بنية اللغة العربية عند حمزة شحاتة ....
* حمزة شحاتة.. أيام معه ....
* الرجولة والخلق/ القاتلة الفاضلة ....
* الأسلوب عند حمزة شحاتة: المفهوم ورؤية العلم .....
* الأنوثة عماد الخلق الفاضل ....
* مثالية الشاعر الفيلسوف: الذات الحرة ....
* استدعاء الأسطورة وتحولات الخطاب في قصيدة «أبيس» لحمزة شحاتة ...
* «حمزة شحاتة» قراءة تربوية ....
* ذهنية النص في رسائل حمزة شحاتة إلى ابنته شيرين ....
* الأسطورة أو «المثيولوجيا» في شعر حمزة شحاتة ....
* أثر الموقف الفكري في جماليات القصيدة عند حمزة شحاتة ...
* الأم شحاتة: قراءة نسوية لمعاني الأموم في حياة حمزة شحاتة ....
* صور الطبيعة في شعر حمزة شحاتة ....
* الموقف من المرأة في شعر حمزة شحاتة ....
* الخطاب الأخلاقي عند حمزة شحاتة ....
* حمزة شحاتة: مركزية الذات ....
* دراسة في المبحث الأخلاقي عند حمزة شحاتة ....
* فيلسوف الحرية ....
* ثنائية الحياة والموت ....
* النص الأسطوري والاتصال الأدبي عند حمزة شحاتة .....
* مخاتلة العزلة: قراءة في رسائل حمزة شحاتة ....
* الرجولة في أدبيات حمزة شحاتة ....
* صورة الفشل والموت في شعر حمزة شحاتة ....
* الحداثة الفكرية وإشكالياتها في «الرجولة عماد الخلق الفاضل» .....
* في مختبر حمزة شحاتة ....
* الرسالة الأبوية في أدب حمزة شحاتة ....
* مقاربات التشبيه في شعر حمزة شحاتة ....
* تضاريس الشخصية الشحاتية وأثرها على مناخ أدبه .....
* كلمـــــــــــات ....

علامات

1 - ينشر الإصدار الدوري للنقد «علامات» الأبحاث والدراسات النقدية المكتوبة باللغة العربية أو المترجمة إليهما على ألا يكون البحث منشوراً من قبل أو مقدماً للنشر إلى جهة أخرى.

2 - ينشر الإصدار «علامات» عروض ومراجعات الكتب والرسائل العلمية المختصة بمجال النقد الأدبي.

3 - يرحب الإصدار «علامات» بنشر المناقشات العلمية الموضوعية عما ينشر فيه أو في غيره من المجلات والدوريات المختصة.

ALAMAT

Literary & Cultural Club Jedda
P.O. Box : 5919 Jeddah 21432
FAX : 6066695
Tel : 6066364 - 6066122
alamat@adabijeddah.com

العـــــــدد

حسن بن فهد الهويمل 7
عبدالله عبدالرحمن الجفري 19
محمود إسماعيل عمار 33
حسين المناصرة 103
عبدالله أحمد الفَيْفي 131
سلطان سعد القحطاني 157
حمَّادي صمُّود 187
لؤي علي خليل 211
أحمد جاسم الحسين 243
عبدالملك مرتاض 275
محمد صالح باخطمة 323
عبدالله محمد الغذامي 355
محيي الدين محسب 365
لمياء باعشن 383
صالح زيَّاد 397
حافظ المغربي 425
سعيد بن عطية أبو عالي 483
عالي سرحان القرشي 513
أحمد قران الزهراني 529
محمد صالح الشنطي 549
فاطمة إلياس 573
فوزي عيسى 597
محمد حبيبي 627
صالح بن رمضان 637
سحمي ماجد الهاجري 661
السيد إبراهيم 681
محمد ربيع الغامدي 703
إيمان بنت محمد سعيد تونسي 713
مراد عبدالرحمن مبروك 731
صالح معيض الغامدي 771
محمد بن مريسي الحارثي 801
عبدالله المعطاني 823
معجب الزهراني 833
علي الشدوي 867
حسن الوراكلي 887
شوقي على الزهرة 903
عادل خميس الزهراني 981
1003

رئيس التحرير

عبدالمحسن فراج القحطاني

* * *

هيئة التحرير

* حسن النعمي
* سحمي الهاجري
* فاطمة إلياس

* * *

العنوان

النادي الأدبي الثقافي بجدة
الإدارة: حي الشاطىء - جدة ص.ب (5919)
جدة (21432) فاكسميلي: 6066695
هاتف: 6066364-6066122

رقم الإيداع 14/0513

(1)

يطالع القارئ في مستهل مقدمة محاضرة حمزة شحاتة الشهيرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) بل في أول جملة من المقدمة حديثاً عن الضرورة: «عندما يكون الإقدام على المخاطر ضرورة لا يعد شجاعة». (ص 21). ثم يستهل الفقرتين التاليتين باللفظ نفسه، والثالثة بلفظ «الحرية».

المناسبة الظاهرة لهذا الكلام تتعلق بالكيفية التي استجاب بها المحاضر لمن طلب منه أن يلقي محاضرته. ولذا قد يظن القارئ أن الدلالة هنا لا تتعدى وصف حال المحاضر والمحاضرة، وتسويغ تغيير عنوانها المقترح عليه آنذاك. أي أنه حديث لا يتجاوز التمهيد لموضوعه، وإعلام السامعين بأنه مارس حريته في زحزحة العنوان؛ حرية أن يطلق لفكره عنانه، فهذا عنده (على حد قوله) أخلق بأن يجعله أكثر شعوراً بحياته وفهماً لها، ورجا أن يحمد له سامعوه نتائج هذه الحرية. (ص 22).

قد يتوهم القارئ أن لفظتي (الحرية والضرورة) الواردتين في المقدمة ينتهي أثرهما عند هذا الحد. لكن الأمر لايلبث أن يتكشف عن أن مفهوم «الحرية» في مقابل «الضرورة» عنده هو الأساس الذي تدور عليه محاضرته في العمق؛ وذلك إلى الحد الذي يصح – فيما أرى – الزعم بأننا يمكن أن نمارس على عنوانه هو حريتنا نحن فنغيره بحيث يصبح العنوان متضمناً أثر الحرية في بلورة الفضائل.

(2)

بدا أن حمزة شحاتة وهو يسأل السؤال الوجودي الصعب: (من أنا؟)

يرى الضرورة – في مقابل الحرية وإرادة الاختيار – هي المعضلة في الإجابة عن هذا السؤال بقدر ما هي أيضاً حجر الأساس في تلك الإجابة: «يبدو لي أنني لم أستقبل حياتي منذ وعيت حتى هذه الساعة. كنت أعيش متأثراً بجملة الظروف والدوافع والمقاومات. أسير وأتقهقر وأقف، وأحياناً أعدو بجنون. وحيث يتاح لي أن أتأمل ذاتي أرى أني أداة تُملى عليها مقدّرات حركتها وسكونها. لم أشعر قط بتحرير إرادتي». (رفات عقل ص 12). ثم يضيف في تفسير قلق حياته: «لقد كانت حياتي قلقة وماتزال، لأنني لم أتمتع قط بحريتي واختياري على النحو الذي يرضي عقلي». (ص 13).

كثيراً ما تتخلل نظرته التحليلية لفلسفة الحياة مرارة الشكوى من إملاء الحياة شروطها الجبرية التي تتعارض مع حرية الاختيار: «في كثير من المواقف لا يكون للإنسان بد من الاستمرار في عمل فاشل بلا توقف، حتى عندما يكون هذا الاستمرار تحقيقاً للإفلاس. وهذا ليس غريباً على الإنسان؛ فإننا جميعاً نتقبل الحياة تحت شروط وظروف غاية في القسوة. نتقبلها كما هي سائرين من سيئ إلى أسوأ حتى الموت. ذلك في ظاهره اختيار، وهو في حقيقته اضطرار لتقبُّل مواقف محتومة ليس من تقبُّلها مناص. هناك من يتوقف أو يتصلّب، ولكنه سيدفع ثمناً أفظع من هناءته، سواء نجح بتصلُّبه أو فشل». (نزاع الإنسان بين متناقشات ذاته فكراً وشعوراً ورضوخاً للضرورات وثورة عليها، ونزاعاً على مطالب حياته وعواطفه وميوله وطموحاته». (إلى ابنتي شيرين ص 61). حتى استحال الأمر إلى أن أصبح «من الصعب جداً تحديد الفرق بين ما ينبغي أن يكون وما يمكن أن يكون وما هو كائن بالفعل. قد يتضح الفرق لكل منا بين ثلاثتها على نحو مختلف. أما أن نتفق عليه فهذا هو الصعب؛ ربما لأنها اصطلاحات ومعايير اعتبارية». (الرفات ص 58). ويصرخ ضجراً من إكراهات الحياة: «صحيح أن من الخطأ أن يعمل الإنسان عملاً يكرهه بدل عمل يحبه. ولكنَّ هذا لا يكون ممكناً إلا إذا وُضع الإنسان أمام الاختيار. وأين هذا الاختيار في الحياة؟ وأين ضمانات النجاح فيما نختار؟». (إلى ابنتي شيرين ص 193). ثم يصور تناقضات الإكراه في الحياة

والانتقال من إجبار إلى إجبار آخر نقض له في عبارة ساخرة: «عندما كنت صغيراً كان أهلي يُكرهونني على الصيام لأعتاده، والآن يكرهني الأطباء على إلغاء تلك العادة» (الرفات ص 94).

إكراهات الحياة وضروراتها عند شحاتة تنافي مفهوم الحياة نفسه؛ إذ إن الحرية أهم مقومات الحياة، أو كما يقول هو: «دليل الحياة» (الرفات ص 70). و«إذا كان لكلٍّ رأيه في الحرية فلكلٍّ طريقه إليها». (الرفات ص 78). و«كم هو مجرمٌ من يحول بيني وبين حريتي بحجة حرصه على حمايتي من أخطارها وتبعاتها». (الرفات ص 63). أما إرادة الإنسان فإنها في نظره أعلى ما فيه. (إلى ابنتي شيرين ص 42).

(3)

حمل حمزة شحاتة تصوُّره للحرية وإيمانه بها معه حين أراد أن يتأمل طبيعة الفضائل. أو ربما كان الإيمان بالحيرة هو الذي حمل حمزة شحاتة على ألا يفصل بينها وبين الفضائل وعلى أن تلازمها كظلها. ولذا كان مفهوم الحرية هو الأساس الذي فَصَلَ الرجل بناءً عليه بين ما هو من الفضيلة وما ليس منها كما أشرنا سابقاً وكما سيتضح لاحقاً.

تحت محاضرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) نحو الحفر المعرفي المفهومي في طبيعة ما يعتقد الناس بحسب ظاهره أنه فضيلة وأن نقيضه رذيلة. وراحت تقلب التصورات وتزحزح ما كان مسلَّماً به أن يقع في محيط الفضائل إلى منطقة أخرى.

عرض حمزة شحاتة الفضائل (ومثلها الرذائل) واحدة بعد أخرى على مقياس الاختيار والضرورة، فما كان منها لا يثبت في حال الاختيار والطواعية والإيمان النابع من الذات لا بتأثير أجنبي خَرَجَ من الدائرة. ابتدأ الحديث عن مسعى الإنسان الأول، وكيف أنه في ذلك الطور ومن أجل تحقيق مطالب حياته «المملوءة بالمخاطر عرف الصبر والثبات والشجاعة وطائفة من هذه

المحاسن المتصلة بضرورات عيشه. نحن ندعوها محاسن أو فضائل، وهو يراها ضرورات تتصل بحياته يأتيها طائعاً أو مكرهاً؛ لأنه يريد أن يعيش. وفي هذا الطور عرف الخوف واعتاد الفرار وأحس بالجبن والعقال القوي. نحن ندعو هذه معايب أو رذائل، وهو يراها سبيل حياته وبقائه». (ص 39-40). ويسير في فلسفة ظاهرتي القوة والضعف في حياة الإنسان الأول وما يتصل بهما من خصال، ليصل إلى التجمع لمواجهة القوى اقتضى شيئاً اسمه «التعاطف» الذي نعده نحن فضيلة ومنشؤه، في واقع الأمر الضعف والاحتماء، ولذلك هو من ضرورات الحياة. وكذا ما يسمى بفضيلة حب الوطن. (وينظر من 40-41). وهكذا يصل إلى مقولة؛ «إن الفضائل أنانية مهذبة، والرذائل أنانية عارية. وإن الفضائل أدل على القوة وانطلاقها، والرذائل أدل على فتورها وضيقها». (ص 64).

تنقلب عنده في هذا السياق المفاهيم رأساً على عقب. فتنقلب صفتا الشجاعة والجبن من حيث المفهوم في العمق إلى عكس المعنى الظاهر تماماً. إذ «الشجاعة ليست خلقاً طبيعياً في الإنسان. فما يتصل بها الإنسان إلا اضطراراً، أو فراراً من عار، أو طمعاً في تحقيق غاية، أو منافسة لند، أو دفعاً لمسبة، أو خطأ في تقدير نتائج المخاطر. فبماذا من هذه الأسباب تستحق أن تدعى فضيلة؟ والجبن في منطق العقل السديد وليد الخوف. والخوف ليس منافاة للعقل ولا للطبيعة الإنسانية. فهو أقوى غرائز الإنسان، وأداة شعوره بالأخطار وسبيل تجنبها». (ص 71). وكذا الكرم والبخل، فـ«الكرم يعطي ليأخذ، والبخل اكتفاء، وما عاب الناس البخل إلا لما فيه من أثر الأنانية الواضحة والاعتكاف في حدود الذات. ونحن نراه أنانية محدودة قانعة، ونرى الكرم أنانية واسعة جشعة» (ص 71). وبالمثل لا يعد الحقد رذيلة لأن النفس لا ينقصها أن تحقد على من أساء إليها. وبالمقابل لا يعد العفو القادر فضيلة؛ لأنه أبلغ الانتقام وأدهاه. (ص 73). والقناعة فضيلة الصابر المحروم. هي في الفقير تسليم بالعجز وفي الغني دلالة الاستكفاء. (ص 74). والتواضع توكيد للذات، في حين أن الكبرياء أنانية واضحة لا تعرف الدهاء

والحذق. (ص 75-74). والاعتراف بالنقائص هدفه الاتصاف بالكمال. (ص 75). والعفة من مطالب الحياة الاكتفائية الحريصة على أن تبقى لها ذخيرتها من النشاط والقوة. فضلاً عن أنها قد تكون عجزاً وفتور حيوية. (ص 75). والكذب ضرورة اجتماعية واقتصادية. (ص 67). والأمانة دليل سيطرة القوى، وضرورة لصيانة السمعة واستجلاب الثقة. (ص 77). فإذاً ليس أيٌّ من هذه الفصائل أو الرذائل «وما هو خليق بهذه التسمية. وإنما ندعوها محاسن ومعايب فردية يهبط بها العرف أو يعلو على وفاق المتصف بها من القوة والضعف، أو على نصيبها من الشيوع والخمول، وأساسها الأنانية والمصلحة». (ص 78).

وبعد أن يستبعد جميع هذه الصفات من أن تكون ضمن هذه الثنائية (ثنائية فضيلة ورذيلة) كما هي مستقرة في أذهان الناس يُبقي على فضيلة واحدة لابد لكل صفة أخرى من الصفات أن تمتزج بها، وهي صفة الحياء. فالحياء «قوام الفضائل أو قوام جماعها». (ص 85). وإلا فليست من الفضائل في شيء. والسبب في ذلك هو أن الحياء ذاتي، أي: بين الإنسان وبين نفسه، وهو خياره الخاص غير المفروض عليه من الخارج. وهذا معناه أن الإنسان لا يكون متصفاً بشيء يستحق أن يوصف به إلا حين يكون مختاراً لهذه الصفة راضياً بها لا يتحول عنها في كل شؤونه. فالكريم يكون كريماً إذا كان دافعه إلى البذل الحياء، والضعف عفيف إذا رده عن ارتكاب الجرم الحياء، وهكذا. «الحياء الذي جهلناه وأضعنا أثره... هو قانون الفطرة الإنسانية وقانون قوتها المطلقة. الحياء الذي هو القوة والرحمة والعدالة... هو الذي يبني الحياة الفاضلة». (ص 96).

الحياء الذي يجعل الفضيلة فضيلة هو المقابل للاضطرار الذي ينفي عنها الفضل ويجعلها أنانية أو ضرورة حياة، فهو هنا مرادف للحرية والإرادة والاختيار. من هنا يمكن أن نزعم أن مبدأ الحرية هو المصفى الذي غربل به حمزة شحاتة الفضائل. لكن لابد من أن تسأل سؤالاً هنا هو: السبب في هذا

الأمر هو مجرد إيمان الرجل بالحرية والاختيار وبناء على ذلك فقط أقام موازين الفضائل والرذائل؟ أظن أن هذا ليس الأمر الوحيد في المسألة. بل يتجاوز الأمر ذلك إلى رؤية خاصة عند حمزة تتعلق باللغة ودلالاتها. ذلك لأننا نرى آثار هذه الفلسفة اللغوية في مواضع أخرى غير موضع الحديث عن الفضيلة والرذيلة. وهذا ما ستعرضه السطور القادمة.

(4)

بالتأمل في طريقة حمزة شحاتة التي تلح على عرض الفضائل والرذائل على مقياس الحرية كما سلف في السطور السابقة نلحظ أنه في التحليل تنبه إلى إلباسات اللغة وتعمياتها في تسميتها للفضائل والرذائل، تلك الإلباسات والتعميات التي تضلل العقل وتصرفه عن رؤية الفرق بين ما هو ضروري وما هو اختياري منها. ولعل هذه الملحوظة هي التي تسوغ لنا أن نصف تأملاته بـ «الفلسفية»؛ إذ الفلسفة في أبسط تعريفاتها كما يقول فتجنشتاين: «معركة ضد افتتان عقلنا باللغة» أي: أنها معركة ضد البلبلة اللغوية. (فتشجنشتين: بحوث فلسفية، ترجمة عزمي إسلام، مطبوعات جامعة الكويت، سنة 1990م، ص 106). وبعبارة أوليفيه ربول: «الفلسفة هي أولاً السؤال عما نريد أن نقوله». (روبول: فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان، منشورات عويدات، سنة 1986، ص 9).

ولكي يحرر حمزة شحاتة المفردة من إلباساتها، ويحرر العقول من استسلامها للإلباس اللغوي، مارس هو حريته أيضاً في التأويل، وحقه في أن يدير في المعنى الظاهر الشك، أو ما يسميه أيضاً بـ «الوسواس». هذا مع ما في ذلك من المجازفة و«الخطورة في اعتراف عُرف متصلب» كما يقول. هي مجازفة وخطورة؛ لأن عدم الحرية الذي طالما اشتكى منه يجعلها كذلك ويضيف: «ولكنا نرجو أن نصحح مقياساً من مقاييسنا الفكرية ولو بالشك فيه. لأن الركود في تاريخ أمة تتطلع إلى ما وراء حدودها الجامدة شر من الخطأ. لهذا ستكون نظرتنا إلى الفضائل – على أن أساسها التجريد القاسي

– نظراً من يريد أن ينطلق بها من حدودها الضيقة المتصلبة إلى حدود رحيبة من الشك والوسواس». (ص 24).

ولذا عُني بإعادة تعريف المفاهيم بضرورة تبتعد – كثيراً أو قليلاً – عن الدلالة الظاهرة المتداولة، محرراً إياها من قيد الاستعمال الذي قد يكون سبباً لسوء التفاهم وحجب المعنى. ففي إطار الفضائل والرذائل التي سبق الحديث عنها نجده في مواضع من كتبه الأخرى يعيد فلسفتها بالطريقة نفسها بحيث تنقلب المفاهيم من الإيجاب إلى السلب وبالعكس أحياناً، وأحياناً أخرى يترادف ما يُظن أنه متضاد ويتضاد ما يُظن أنه مترادف، منبهاً على خطورة المغالطة والبلبلة اللغوية. يقول في إحدى شذرات رفات عقل: «التلاعب بالألفاظ قديم. وإلا فما هو الفرق بين الجشع والطموح، والتهور والشجاعة؟». (الرفات ص 68). و«كم كان الإنسان منافقاً عندما وضع للحب الشهواني أسماء أخرى». (ص 42). و«البطولة هي الجريمة إذا كُتب لها النجاح». (ص 55). كما يعيد تعريف مفاهيم أخرى مألوفة قد يظن الناس أنها لألفتها لا تحتاج إلى تعريف، أو يعيد توصيف ما قد يُعتقد أنه ظاهر لا يحتاج إلى وصف. فـ «الحب والسعادة والحقيقة أقدم وأخطر أوهام الإنسان». (ص 54). و«الحب والمال والزواج أقدم أسباب التعاسة في العالم». (ص 58). و«الحب مؤامرة لا يستطاع كتمانها» (ص 63). و«الغباء والتغابي حكمة وقدرة خارقة على ضبط النفس». (ص 58). وهكذا يسير في إعادة تعريف المعرفة والجهل، والحقيقة والواقع، والواقع والمنطق. إلخ.

ينطلق شحاتة في إعادة تعريف المفاهيم بعد هدم الظاهر المتداول منها من فلسفة لغوية خاصة تستند إلى عدم الوثوق باللغة وما تحيل عليه. إذ إنها في أكثر أحوالها تحول دون الفهم وقد تتحول إلى أداة لسوء التفاهم أكثر من كونها وسيلة تفاهم. أو كما يقول هو بعبارته مؤكداً هذه الصفة الملازمة للغة: «طالما سألت نفسي بحزن عميق: أفي وسع هذه اللغة التي نتخذها وسيلة لنقل أفكارنا أن تهيئ لنا جواً طبيعياً للتفاهم وتبادل الثقة والشعور؟». (رفات عقل ص 47).

فإذاً حين أراد حمزة شحاتة أن يبين أن مفهوم «الحرية» هو أساس الأخلاق وميزان الفضائل الإنسانية الذي توزن به رأي ما يحجب عنه التصوُّر – مع بساطته – هو اللغة التي تسمي الأشياء فتُعمى عن حقيقتها، وأن اللغة تحتاج إلى «تحريرها» من افتتان العقول بها مثلما تحتاج العقول أيضاً إلى «تحريرها» من عمى اللغة، فراح يمارس حريته هو في التأويل؛ ليتبين بعد ذلك مفهوم الحرية بعيداً عما تقوله اللغة وتكرّسه، وتتبين عندئذ منزلة الحرية الحقيقية في الحياة، أفلا يستحق بعد هذا أن يوصف بـ «فيلسوف الحرية»؟